

## من كنوز القديس كيرلس السكندري (71)

### عبيدٌ بطَّالون

تحدّث الربّ يسوع مع تلاميذه عن إرجاع الفضل لله في كلّ شيء، ومقاومة الإحساس الداخلي بأننا أصحاب إنجازات عظيمة، وأفضل من غيرنا؛ فقال لهم: "مَنْ مِنْكُمْ لَهُ عَبْدٌ يَحْرُثُ أَوْ يِرْعِي، يَقُولُ لَهُ إِذَا دَخَلَ مِنَ الْحَقْلِ: تَقَدَّمَ سَرِيعًا وَاتَّكَيْ. بَلْ أَلَا يَقُولُ لَهُ: أَعْدِدْ مَا أَتَعَشَّى بِهِ، وَتَمَنِّطُقْ وَأَخْدِمْنِي حَتَّى أَكُلَ وَأَشْرَبَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ أَنْتَ؟ فَهَلْ لِذَلِكَ الْعَبْدِ فَضْلٌ لِأَنَّهُ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ؟ لَا أَظُنُّ. كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا، مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ، لِأَنَّا إِنَّمَا عَمَلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا" (لو7: 10-17).

يُقَدِّمُ الْقَدِيسُ كِيرَلْسُ الْكَبِيرُ تَعْلِيْقًا لَطِيْفًا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، فَيَقُولُ:

+ وَجَّهَ الرَّبُّ لَنَا فِي هَذِهِ الْأَعْدَادِ حَدِيثًا طَوِيلًا وَهَامًّا، لَكِي يُرِينَا الطَّرُقَ الَّتِي تُوَدِّي إِلَى الْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ، وَلِيُظْهِرَ أَمْجَادَ الْحَيَاةِ الَّتِي بَلَا لَوْمَ، لَكِي بِنَقْدُمْنَا فِيهَا.. فَإِنَّا نُدْرِكُ جَعَالَهَ دَعْوَةَ اللَّهِ الْغُلْيَا (في3: 14).

+ طَبِيعَةُ ذَهْنِ الْإِنْسَانِ تَنْتَهِجُ دَائِمًا إِلَى الْمَجْدِ الْبَاطِلِ، وَتُصَابُ بِسَهْوَةٍ بِالْمَيْلِ نَحْوِ الْإِفْتِخَارِ الْبَاطِلِ.. وَالْمَتَمَيِّزُونَ أَمَامَ اللَّهِ يَقْدَمُونَ دَائِمًا بَعْضَ الْفَضَائِلِ النَّبِيلَةِ جِدًّا كَحُجَّةٍ لِهَذِهِ الْخَطِيئَةِ.. إِنَّهَا خَطِيئَةٌ خَطِيرَةٌ جِدًّا وَكِرِيهَةٌ أَمَامَ اللَّهِ، فَالْحَيَّةُ مَصْدَرُ كُلِّ شَرٍّ تَقْوَدُ النَّاسَ أحيانًا إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الذَّهْنِيَّةِ، حَتَّى أَنَّهُمْ رَبَّمَا يَتَخَيَّلُونَ أَنَّ اللَّهَ يَكُونُ مَدِينًا لَهُمْ بِأَعْلَى الْكَرَامَاتِ، عِنْدَمَا تَكُونُ حَيَاتُهُمْ مَجِيدَةً وَمَمْتَازَةً.

+ فَلِكِي يَجْتَنِبْنَا الرَّبُّ بَعِيدًا عَنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ، فَإِنَّهُ يَضَعُ أَمَانًا.. أَنَّ السَّيِّدَ لَا يَعْتَرِفُ بِأَيِّ فَضْلٍ لِلْعَبْدِ، حَتَّى لَوْ فَعَلَ كُلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، بِحَسَبِ مَا هُوَ لَائِقٌ بِوَضْعِ الْعَبِيدِ.

+ لَاحِظُوا هُنَا أَنَّ الرَّبَّ يُشَجِّعُ التَّلَامِيذَ.. عَلَى الْاجْتِهَادِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَأَنَّهُمْ يَقْدَمُونَ خِدْمَتَهُمْ لَهُ عَلَى أَنَّهَا فَضْلٌ مِنْهُمْ، بَلْ كَمَا يَدْفَعُونَ دِينَ الطَّاعَةِ الْوَاجِبَ عَلَى الْعَبِيدِ؛ وَبِهَذَا يُبْطِلُ دَاءَ الْمَجْدِ الْبَاطِلِ، الْمَلْعُونِ.

+ لِأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ، فَلِمَاذَا تَتَكَبَّرُ فِي نَفْسِكَ؟ أَلَسْتَ تَرَى أَنَّكَ سَتَكُونُ فِي خَطَرٍ إِنْ لَمْ تُسَيِّدْ دِينَكَ؟ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ قَدْ تَعَلَّمَهَا وَفَهَمَهَا جَيِّدًا ذَلِكَ الْخَادِمُ الْعَجِيبُ بُولَسُ الرَّسُولِ الَّذِي يَقُولُ: "لِأَنَّهُ إِنْ كُنْتُ أُبَشِّرُ فَلَيْسَ لِي فخر، إِذِ الْضَّرُورَةُ مَوْضُوعَةٌ عَلَيَّ، فَوَيْلٌ لِي إِنْ كُنْتُ لَا أُبَشِّرُ" (1كو9: 16).

+ فَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ حَسَنًا، وَقَدْ حَفِظْتُ الْوَصَايَا الْإِلَهِيَّةَ، وَقَدْ أَطَعْتُ رَبَّكَ، فَلَا تَطْلُبْ كَرَامَةً مِنَ اللَّهِ كَأَنَّهَا حَقٌّ لَكَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ اقْتَرِبْ مِنْهُ وَاطْلُبِ الْهَيَبَاتِ الَّتِي مِنْ سَخَانِهِ بِتَوَسُّلِ.

+ تَذَكَّرْ أَنَّهُ فِيمَا بَيْنَنَا أَيْضًا (يَقْصِدُ فِي الْأَوْضَاعِ الْأَرْضِيَّةِ)، فَإِنَّ السَّادَةَ لَا يُورُونَ بِأَيِّ شُكْرِ عِنْدَمَا يُوَدِّي أَيُّ وَاحِدٍ مِنْ عَبِيدِهِمُ الْخِدْمَةَ الْمُعِينَةَ لَهُمْ، رَغْمَ أَنَّهُمْ بِجُودِهِمْ يَكْسِبُونَ ارْتِيَاخَ عَبِيدِهِمُ الْأَمْنَاءِ، وَهَكَذَا يَوْلَدُونَ فِيهِمْ نَشَاطًا أَكْثَرَ بِفَرْحِ.

+ بِالْمِثْلِ يَطْلُبُ اللَّهُ مِنَّا خِدْمَةَ الْعَبِيدِ، مُسْتَحْدِمًا حَقَّ سُلْطَانِهِ الْمُلُوكِيِّ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ صَالِحًا وَجَوَادًا، فَإِنَّهُ يَعِدُ أَيْضًا بِالْمَكَافَاتِ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَعَبُونَ، وَعَظْمَةُ إِحْسَانِهِ تُفُوقُ أُنْعَابَ عَبِيدِهِ جِدًّا، كَمَا يُوَكِّدُ بُولَسُ الرَّسُولِ إِذْ يَكْتُبُ قَائِلًا: "إِنَّ الْأَمَّ الزَّمَانَ الْحَاضِرَ، لَا تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِيْنَا" (رو8: 18). نَعَمْ فَرِغْ أُنْتَا عَبِيدَ، فَالرَّبُّ يَدْعُونَا أَبْنَاءَ وَيَكَلِّمُنَا بِالْمَجْدِ اللَّائِقِ بِالْبَنِينَ.

[عن تفسير إنجيل لوقا للقديس كيرلس السكندري (من العظات 113-116) - إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الأبائية - ترجمة الدكتور نصحي عبد الشهيد]

القمص يوحنا نصيف